
أقبية
الليل
شعر
مد حسيب القاضي

محمد حسيب القاضي



شعـــــر

دار الكرمل
للنشر والتوزيع
صندوق البريد : ١٧٠٦٧
عمان ـ الاردن

رقم الايداع
١٩٧/٤/١٩٨٥

الطبعة الأولى
١٩٨٥

طائر النورس

إلى معين بسيسو

عند منتصف الليل

تعلن ساعة بج بن منتصف الحلم

لا توقظي الرجل النائم الآن في غرفة الفندق،

الرجل الآن يعدو وراء غزالته

وهي تعدو على إبرة أو سحابة

حين ينهض من نومه في الصباح المبكر جدا

سيحكي لنا ما رأى،

ويقول انظروا في اصابعي العشر بعض جروحٍ

وحبر كتابة

بامكانك الليلة السفر. اذهب

ولكن الى أين؟ تسأل

لا اعرف الآن غير الذهاب الى لا مكان
وغير هبوط الخطى الاضطراري في لا زمان.

وتلك الحقيبة صارت سفينتنا
والسفينة ارض الوطن.
ولكن بامكانك الليلة السفر. اذهب
ـ الى اين؟
ـ اذهب
ـ الى اين؟
ـ لا فرق بين المدن
وان الذي قد رماك بداء البنفسج والذاكرة
قد رماني
وتعرف انك كنتَ الغريبَ الذي ضيعته البلاد
وما ارجعته المقاهي ولا صحفُ اليومِ
انك كنتَ تحدقٌ في الوقت. في جلده اليابس
الوقت كان يهرِّبُ منك الثواني المريضةَ
خلف انقشاع البنفسج عن غيمة صدئة

وكنت تحاول ان تمسك اللحظة الزئبقية
كي تمنح اللون للشيء
والشكلَ للحلم

والصوتَ للشفةِ الميتة

وتعلم انك لا تستطيع سوى ان تكون
وانك آه معين بسيسو
ذلك الغجريّ الذي ليس يشبهه الآن غير السفر
دون فيزا الى المدن البابلية
تلك التي ما لأبوابها الحجرية حصر
وغير المطر
بسكاكينه المتطاولة الحدّ
نازلة في دمك
وكان يسوع يكلمني بفمك . .
ويقول :
وما صلبوني وما قتلوني، ولكنني كنت اشبهه
ويمرون من ثقب كفك . ما اوسع الثقب في الكف
وامرأة التيه كانت ترقرق في كأسك الضحك الأسود،
العطش الحلو
امرأة الريح واللحظة الغامضة
كنت تعرفُ انك تذهب حتى نهايات افريقيا
وتعرف ان البنفسج ايضا يلملم من وجهك
النورسيّ ملامحه الخشنة

وينتظر الغيمةَ الحائضة
وأن الكلام الذي باع فضته
يشتري في الشفــاه سكوت الذهب
وأن الحصان الذي كان في باب طروادةٍ من خشب
وأن الذباب على الجرح سوف يحطُّ،
ويصبح جرحُك قرصَ عسل
آه يا جرح،
هــل أغــرس الــنــاي فــيــك واضــحــك
أم انتحب
والف يد تسرق الورد منك وتلقى به للخنازير
قد صرتَ يا جرحُ آنيةً للبصل
صار منفاي اضيق مما يجب
والبحر اوسع مما يجب
والقدس اقرب مما يجب

آه يا جرح،
والميرميةُ رائحةٌ تفتح الان نافذة
وغموض يدين بدائيتين
واولَ موتٍ
وغبطتَنا

لم يعد ما يثير الخرافةَ في شاي امي
او يوقظ الرغبات الدفينةَ تحت رقاد الحجر
اي شيء يهز النحاس من الروح
كيما يدل على الشيء
من يكسر الان فوق رخامي القمر
ويضربني بظلالي السحيقة كي استحيل
الى زمنٍ وارف الدمع
من اجل ان اطلب الصفح والمغفرة؟
ولم تكن النار تكفي القرابين او نحن لم نكف حتى نسد بنا رمق المجزرة

واقول لها: اجعليني على هيئة الطير والبرق
أو لك ان تنفخي في دمي صوتك الأوليّ
لكي اتغير
كي اتحور

ما عاد وجهي لي
ضاع فوق المرايا المعراة وجهي فما عدت اعرفه
واستعارته مني الطبول فانكرني
اي شيء يهز الرخام من الروح

كيما يدل على الشيء
او اي شيء يثير الزمان الذي يتوقف
في الحالة المرضية حتى يـــدور . . واشفى

آه يا جرح
نافورة من ظلال
وعاصفة من براعم تبحث عن شجرٍ
ثم تفتح بابا على الميتين فأبصر من بينهم
ذلك الطائر اللهبيّ يحاول ان ينهض الان من موته
والرمادِ المؤقت

،اصرخ : يا طائر النورس احترق الان حتى اراك
هنا البحر يتخذ الان مجلسه ملكاً في سفينة
والقراصنة العالقون باشرعتي وقميـصي الوحيد
القراصنة العالقون بخيط الدم الطازج الرائحة
جعلوني لدى البحر محض رهينة
فيا طائر النورس احترق الان. لا بدّ ان تحترق
لكي اختفى عن عيون القراصنة الجارحة
في ملامحك الواضحة

. . . . . .

. . . . . .

وتـعـاود سـاعـة بـج بـن دقـات مـنـتـصـف الـلـيـل
او اول الحلم

والرجل النائم الان في غرفة الفندق.
الرجل الان يعدو وراء غزالته متعبا
وهي تعدو على شوكة او ضبابة
ما الذي لاح بين اصابعك المستفزة
ان لم يكن غير جرحٍ وحبر كتابة
والقصيدة تلك الحقيبة

كنت ترتب فيها ملابسَ غربتنا
وتخبىء اوراق اثبات جنسية للندى
ومواعيد قتل مكررة
الحقيبة خيمتنا المتنقلةُ الآنَ
بين السماوات والحجرِ

وها انت في صالة الجمرك الآنَ تُخرِجُ منها
مناديلَ دمع. حصى. كلمات مهربةً
وبلاداً واشياء اخرى.
ويسألك الضابط العربي المناوب عما
اذا كنت تملك تأشيرة السفرِ!!

والبنفسج كان دواء الجنون
وداؤك هذا البنفسج
الكتب. الاسطوانات. اوراقك الخاصة. الزمن
التبغ. صوتك. شباك بيتك في غزة
الاصدقاء. ودمعة صهبا مبللة بالبنفسج
آه معين بسيسو

ايها البرتقاليّ بين الغصون التي تتهالك
والبرتقالي صوتك يقطفني الان من شجر البرق
عريان مرتجفا
ثم يقذفني في مدى الحلم
لكنني لم ازل هابطا. . والبساطير في الارض تطلبني
والمسامير تطلبني
وانا نازل. . نازل. . نازل

ايها النورسيّ المعلق من دمه في الجبال
وتنزع ريشك ابيض. . اخضر. . ازرق
تغرسه الان في جثةٍ لتطيرَ
وبين اصابع زيتونه لتقاومَ حطابها العاريَ الظلِّ
او انت تغرس ريشك في جلد خيمتنا
وتقول انظروا ماء غيمتنا

لن تموتوا من العطش الآن فوق الرمال
ايها النورسي المعلق من دمه في الجبال
تعال.
فها نحن نبحث عن موجة غير مستأجَرة
وعن خشبٍ لا يضيق بنا
ونعد كلاما يناسب اي احتفال
ونزمع ان نشتري قبرّه
نعلمها ان تغني بسبع لغات
وتبكي بسبع لغات
ونبحث عن قبلة ليس تعني سوى طعنةٍ ملء مقبض خنجرها
وسماء مدجنة بثلاثين من فضةٍ
وبرميل نفط
ونسأل عن فندق صالح لاقامتنا الدائمة

ο ο ο

مرة ثالثة

تــواصــل ســاعــة بــج بن دقــات منتصف الحلم
او اول الليل

والرجل النورسي يطارد ظل غزالته
الرجل الآن يهدأ

ها انه النوم نهبط في بئره اللولبيّ عراة
او الموت لا فرق. . نأخذ عدتنا للهدوء
قليلا. . اذا كان في الموت راحة
وأقول له اشتعل الان كي نتحسس اوجهنا
في مراياك
ان المرايا غبار
وفي عيني امرأة الفل تلك التي لا تغادرنا
ربما نجد الآن بعض المساحة
واقول له اشتعل الآن يا ايها النورسيُّ
الالهيّ ملء رمادِ الخرافة والزمن المتخثّر
فوق عقارب ساعاتنا
اشتعل الان زينونةً من دموع
وثانيتين من الشفق المتزن
لنرى الان ما ينبغي ان نرى
هذه مدن تشترى وتباع بنعلٍ وصفدعة
ووتد.
تعيش المدن. تعيش المدن
ولم يعد الابيض المتوسط يحسب دخل السياحة
في العام بين دفاتره الزرق. .

بل سيضيف رحيلَ الفجر
ودخل السفن!!

تعيش المدن
تعيش المدن
آه يا ايها الابيض المتوسط
ها أنت ذا تجلس القرفصاء على خشبي الضيق المتآكل
من آخر المذبحة
الى اول الهجرة السابعة
الى اول المقبض المتلألىء في يد سيدنا الرمل
ان البدايات مقترحة
من يديك اللتين على البحر قد رمتاني
لحيتان لحظتنا الضائعة
فيا بحر آهٍ اذا كانت الآه تشفى

مرة رابعة
واخيرة . .
ودقات بج بن تلك الضبابية الان تنأى
وما زال في غرفة الرجل النائم الضوء مشتعلا
وهو يكتب غزة في حلمه موجةً، او غزالة برٍ

ويهبط في النوم،

في بئره اللّولبيّ رويدا، رويدا

وبين ملامحه تعب الرحلة المضنية

فلا احد يوقظ الرجل الذاهب الان في حلمه

رجاء

رجاء

٢٨/١/٨٤

تونس

١٩٨٢

انا ساهر كوكب ليلتك الأولى
والليل هنا يمتدُّ . . ولما تأت
وانت الزيتوني، ظلالك وسع الافق
وهذي الحجرة ضيقة
والزيتونى القادم ذو الارض الاولى انت
المتنقل بين الطعنة والوقت، المتحول في الاشياء
واهداب الشمع المنذور بقلبي مثقلة بالدمع
ولا تهمي،
وأراك
أقول: أرى جسدا يأتيني مرتديا كلمة
لا تنس مسدسك الشخصي . .
فان بزاوية المقهى او في الطرق المهجورة
او في بابك يكمن قاتلك اليوميّ

وحتى خلف سطور كتابك
انت الكنعانيّ النازف بين رنين الفضة
والاسماء الخمسةِ
ما شُبِّهت لهم،
لكنك تطلع دوما من هذا الموت العرضيِّ
وتأتي
الليلة تحمل صحنك.. هل يغُنى
ام لحمك يغرى الباعةَ..

ان الساعة تعلنُ منتصف الليل:

امرأة من ضوء تُطفأ
هل الا دمنا ليعيد النبض الى اسلاكٍ هامدة
والقبلة فوق شفاة جامدة لا طعم لها
واقول: الليلة تأتي انت جماعياً ووحيداً
من اوراق الزعتر والحزن الشعبيّ
واعرف،

ها عيناي الليلة تتسعان.. فابصُرني

ويداك معي. و نسير على نفط
يتدلى من خيطٍ في ثوب السلطان العثمانيّ

انظر
ها ان الكف المقطوعة تطلب صاحبها،
كي تلقي في البئر المشهودة عود ثقاب
ماذا عن نخل لا يكفي اليأس اذا ما صار
الى حطب،
او مال الجوع على لهبٍ ممنوع
اني اسمع من صوتي انسانا مقتولا
يتكلم:

تخرج منك ظلال ناشرةً اسرارك
ارضا فيها الصيفُ يكون شديدَ الحر
كذلك أدرى ان كتاباً عندي اسرده
عشرين مدينة ضادٍ او ضدٍ لا فرق
وادى انك تأتي منذ الموت الاول
حتى آخر بيع
لم لا..؟؟
امتدّ

الحلم يفسره دمنا،
مع هذا ندخل ملء اليوم الغامض
ماذا في القدح الموعود يلوح لنا

ابــلاد من شــوكٍ ام شــوك يــأخــذ شكــل بــلاد
جارحة . . . ؟

ستّيان
وتأتي انتَ الآن ، وليس سواك الكنعانيّ أبي
انا لست خيالياً
لكني قد صدّقت سراباً يضحك لي
وصدّقت الفجرَ القولَ فلم يحضر في الفجر
وانت الكنعانيُّ الغائبُ حين اراكَ
يلاقيني وجهي ،
والزيتونيّ الوارف صوتك يسكنني
دهرياً
اي لغات تخلط حنجرتي بغبار شوارع
نائية لا اعرفها
واكون نبي البن وخبز الغربة
الا انك ما غادرت صفاتي
ما غادرت ثيابي
ولا بدّ ستأتيني . . اجل ، ان يكفى الثقب
مفتوحاً على بيروت
آه . . ويمرُّ الشارع الملغوم منه ،

الطائرات . . المدن . . الزعران . . حقل النفط
انباء الوكالات . . المزاد . . الشهوة . . القهقهة
الاجراس والرمل . . الى آخره
انت معي

والليل هذا حائط من خشب يعلو
ومسماران

هل ينضح قلبي غير زيتون؟
تدق الساعة المنهكة، الليلة
لا تتسع الحجرة للزيتون والنوم
وفي الكف اتساع
لتكن انت ببابي، وتفضل بالدخول
الليلة العيد . . وما عدنا الى البيت
وطعم الشاي والأهل . .
تفضل وادخل

الليلة امي وعدتني ـ وهي لا تكذب،
ان تجلب لي من طبريا البحر

لكن سفني معطوبة
ـ لا بأس . . فلتفرد هنا خيمتك الدكناء قلعاً
ـ انا لو اقدر ان اقتل هذا الرجل الفقر

على كلٍ سيأتي الخير بعد القصف
قد بشرني النفط. . فلا تحزن
وعيناي على نافذةٍ تهوى ولا تهوى
الا هبني رؤيا
ان حِبرّ السهد يجرى الان فوق الكتب،
المنفضة، الاغطية، القطة والراديو العتيق
الحبر والزيتون
والزيتون والحبر
وهذي حجرتي ضيقة والوقت. .
كم الساعة؟ لا موعد للعاشقة
الليلة تدعوني. . وسلك شبائك ينبح لحمي
حرس بالباب، ألغام على الاهداب
ـ هل تملك ان تدخل او توقظها من نومها
ـ املك

ـ فلتذهب اذن في الحلم
لا تترك يدي مطفأة
هبني ناراً واجاباتٍ
وتهمي صحف اليوم كتابات واخبارا
وها انت ترى وجهك في المحبرة السودان

هذا العابر الليلة اقلاما واختاما واوراقا
ولا موعد للعاشقة. . احضر
ان لحمي يفرز الان حصى او ابرا
فيما اغنى لك او ابكي
وللساعة وقت واثق بي
واراك

البحث عن مريم
في الربع الخالي

حين جئتُ المدينة
كانت سماءٌ من الرمل خلف منازلها
والحقيبة تمسك مني يدا، وتدور
وايدي المدينة تحمل وجهي للشمس محترقا
[من يدل الغريب الذي ليس يعرفه أحدٌ؟]
وتكمشتُ بالغصن ازرق
اي نهار من الآس ينأى
فيهوى الندى بي الى الرمل شيئا فشيئا
ترى اين القاك آنستي..؟

●●

●●

قد تساءل اهل المدينة حين رأوني هنا:
من يكون الغريب؟

واوقفني الشرطي قليلا
وكنت اخبيء وجهك هذا الطفولي ما بين ثوبي وجلدي
واسأل عنك الدروب التي ضيعتني طويلا
وارفع عيني نحو شبابيك مغلقة
تابعا ظلك الهارب الابديّ
وامضي مع المارة المسرعين وخطوتي المستجيرة
وحدي

اتعرفني لو رأتني آنستي؟

ولماذا اتيت انا
وتباعدت انت؟
لماذا اتيتك في آخر العمر ابحث عن وردة
هربت من صباي

وعطرك ذاك الخفيّ يعاودني دائما
موقظا في عروقي داء الحنين المقيم
هل احاول ان اصف الآن عينين واسعتين
ولا يملأ الشوك والرمل اغنيتي
آه والميرمية آنسة طلبتني ذات نهار
خميس بعيد،
فكانت يداك تبوحان ـ والشاي في الكوب يخدر

ثم تزيحان عن وجهك الخصل المستفزَّة
او تغفوان على مفرش من نقوشٍ خرافية ورسوم

هكذا عندما كانت العين تنظر في العين
يهرب طير الكلام
ورائحة الميرمية آنسة
والندى عاشق صامت الدمع ليس يبوح
وكنا على وهج اللحظة البكر محترقين نحوم

وتدورين بي. اي شيء يحاصرني بك؟
هل هو صدرك هذا الذي يتبرعم خلف الفساتين
في غفلة من يدي..؟
اهي ساقك حين تريحينها فوق اخرى
ام الجسد المتدفق ملء العباءة
بل هو شيء من الحزن بين ذراعيّ
يطفو رويدا،

ويسّقط في نهر روحي اوراق اغصانه
ويبللها بالنجوم

ما الذي يحدث الآن؟
ها هو ذا عريك الصحراويُّ يدركني

بين صبارة وجناح قطاة
فألقى عليك قميصَ السماء الرمادي مستغفرا
بينما اتنسم منك رياح السموم .

ويحدثني الرمل ان الينابيع تشحب عندك
انك عطشى الى قطرة من ظلالٍ معتقةٍ
[ونهار من النخل خلف البنايات يُفنى . .]

ترى هل لقيتك ام انني اقتفي اثرى
الضائع الآن فيك سدى
باحثا عن ملامح وجهي القديم؟!

الرياض - ٧ اغسطس ١٩٨٠

زهرة الآس... وأنا

قبيل ٣٥ سنة
وهو هنا
لما يزل يهبط من شقته بقرطبة
يهبط من دالية الغيم وضحكة الثعالب
يهبط مطعونا بخنجر القصيدة الذي يلمع
في قبضته
معانقا عريه
يهبط في الوادي الخريفي
انا الماء، وانتِ زهرة الآسي
وكنتُ يا حبيبتي على اصابعي
احمل هذه السماء كي تظلي طافية
او اه يا زهرة آس عائمة
هل كنتِ انت غير نجمة القتيل
اشتعلت خلف حدود الفرح المتاخمة؟

وهل أنا سوى رمادٍ اضمرتني جمرة
للحظة المواتية؟
وحينما داهمني الرمل انا العطشان
كنتِ انت في دمي تدورين ينابيع خفية
غزالة
اناشيد صغيرة

فكل ليلةٍ احاصر القلعة فوق ساحة الشطرنج
كنت اقتل الملك

وعندما اعود في آخرة الليل الى يديك
يستوقفني الدرك
فيما انا اصرخ بين الصحو والنوم :
قتلته على طاولة المقهى امام اعين الجنود والحرس
وينبحونني: صه
وانتِ دائما تحاولين ان تخلِّصي لساني الخائف
من داء الخرس
وتصليني بيدي ، فأسترد النبض . . يسترد قلبي
جسدي ـ هذا الذي ينزفك الليلة ،
ان احصيت فيه عدد الانياب
سوف تعرفين عدد الصحاب والمدن

الله يا زهرة آس عائمة
انت بلا غصن
وها أنا بلا وطن
ولم يزل رأسي مطلوبا على اول قائمة
ازعم انني اشمُّ النفط ملء الافق القادم
والأوراق
انني ارى الدولار يدعي اخضرارَ عيْنيِ البني
وانني اسمع خلف الباب ما اسمع
لكني اجيء دائما في اللحظة الملائمة
او هكذا أظن
ـ هل جئتَ
ـ الأصح انني نوْديتُ باسمكِ البهي تحت ذلك الجدار
حين متُ . . قمت
ما الذي فعلتِ
والكلام لم يكن سوى ضريحك المُعَدِّ
ها انا اصيح ،

هل ترى يبلغك الصوتُ :
هم الان يجيئون اليك من كتاب الشعر
والغزو وعلم التكنولوجيا

يسقطون كل مرة على دمك
او يصعدون ليلة نهديك خفية
ويهبطون من ساقيك حاملين
زنبقا ورمانا
اقول: انصتي
هذا دبيب النمل في الشريان
لم يزل يدور. . لم يزل يعلو
طنين وعويل من دمك
فكل غيمة تحزُّ عنقاً، يصير نهرا في يدك
وكل سكين يصر طائرا يحوم فوق جثةٍ محاصرة
الله يا زهرة آسٍ طافية
يسقط خطُّ إلاستواء بيننا
يشقنا اثنين
يصير وجهنا نصفين
يستحيل موتنا الى موتين
حينئذ يدق قلب واحد يطلب صدرا
واحدا
ولم اكن انا هناك الطرف المحايدا
بل كنت يا حبيبتي شهيد عينيك الحزينتين

كنت الشاهدا
وحينما وقفت ضائعا على باب المدينة
المعادية
اصيح يا حبيبتي:
سبعون الف زهرة داكنةٍ
تفيض عن حاجة موتي
وتفوح دفعةً واحدةً عند انعقاد اللبن
الحامض في نهديك، هل سمعت؟
هذا أنا..
اخرجي من السواد كي ارى
- لنا الليلة ان نسهر والاغصان حتى اول الطلع
ولكن الغبار يعتلي المرايا
فأيٌّ نهرٍ، أي نجم سوف تعطيك المرايا
بهو من الزخرف والياقات والاضواء
يُفتحُ،
العباءات التي تُفتحُ لم تكن سوى اكفاننا
اواه يا زهرة آس عائمة
على دمى
تأتي من الجراح خيلٌ لم تزل صاعدةً ماءً

واشجارا واياما
وانتِ يا حبيبتي تظلين هنا
فوق الصهيل طافية
(لا تشتري في البحر اسماكا . .)

وكل موجة . . وكل كأس عطشي
وان طعم شفتيكِ صار اشواكا وملحا بشفاهي
وانتِ . . انتِ صورةُ العاشقِ في شبابه
ولحظة انتحاره
ولم اكن اعلم يا حبيبتي ان الطبول والأكف

سوف تستعير جلدي
ان قبر الميتين (ذلك المنجم يعطي ذهبا)
وكل من هب ودب سوف يأتي
هل لهذا نحن . . أمْ . . ؟

وحين ضاع في زحام الناس وجهي
لم تدلني سوى ثيابك السود
فقلت: هذه انت
ركضت خلفك . . استدرتِ نحوي
وابتسمتِ لي
ولكن عندما هممت ان المسك اختفيتِ

اين؟
لم يزل يخوضك العصفورُ يا حبيبتي عريانَ جائعا
يبحث عن شواطيء الانهار في اناملك
وحينما تصيبه شظية الفل المفاجئة
يسقط ميتا على ضفائرك
وانتِ كل امرأةٍ ولست مثل اية امرأة
الله يا زهرة آس ضائعة
انا هو الغصنُ - وياما قلّبت أمي بي الجمر
اذ غطى الرماد ليلة العمر الشتائيةْ
وكان يا ما كان او يكون يا حبيبتي
وسوف يجري ما جرى،
وعندك البقية
اعترف الان بانني أُحبُّ
انك . . أُعني ان قوس قزحٍ ممددٍ على سريري
استيقظي . . هل انت نائمة؟
ايتها الحديقة المعلقة
في سقف غرفتي، اهبطي الليلة يا حبيبتي
الي ضوء نجمةٍ، او مشنقة!!

الجمعة ٤/١١/١٩٨١

أقبية الليل

للتي ترتديني، واعرى
التي من غصوني تجيء
وتهمي على كتبي ورمالي وذاكرتي
وفي خدها
ينام ملاك وحبات تفاحها
وانا المُبْتَلى اوف يابا
التي ليلة العشق تشعل في حطبي نارها
وتغادرني هاربة
واذ أُترمّدُ تأتي وتنثرني للرياح
وارصفة المدن الدبقة
التي حين تفلت من خصرها موجة
استحيل الى شاطيء مستهام فترتدّ عني منكفئة
وتتركِ بين اصابعي الرغوة المستحيلة

[والزرقة اللانهائية الخفق تنظر نحوي مستهزئة.]
مهرة هي ذاهبة دائما في اتجاه اغتيالي
المؤقت او عكس منفاي . واللغة المنتقاة
من الرمل مثقلة بالندى وعناقيده المعدنية
او ساعةِ الماء اذ يترجرج خلف هروب
الثواني ظلي ويمضي كصارية ناشفة
وهي امرأة وانا شفتان مملّحتان
وجوع يدين
وهذا الليل العاري سيدها
ودمى اذ يلقى زهرة خنجره
في العتمة مقرورا،
تختضُّ قبائل من رملٍ وخيام
او يتناسل طيرُ البرق على اسلاك شائكة
ورخامٍ

وهي كلامُ الوردة وقت زفاف الجرح
الى حلمٍ او سهل يعدو في غيمٍ
هل تعلم سيدتي اني وحدي احيانا
أبصر اشرعة او اكفانا تنطلق باموات شمعيّين
على نهر يصعد ليلته

ونساء يحملن ضفائر ذابلة خلف عويل
السفن الذاهبة الى قبرص او واق الواق
وعذارى يحلمن بان يتزوجن طيورا من زَبَدٍ
كي ينجبن شطوطا ومحارا وفضاء. . ؟
وأقول هو الحب هزيمة جسدين
الليلة ينتظران قيامة موتهما

●●

●●

وما كانت امرأتي عاقرا
وما كنت
لكنه السيف هذا الذي دائما واقف
عند بوابة الرحم الابدي ترصع مقبضه
الصدفي عيون لصوصية
[هل اتاك المخاض؟]
ولا نخلة في يدي
وللموت ما تلدين أو السوق. . . سيّان
او للوثيقة
لا بد ان تلدي
انه الماءُ يحمل السنة اللهب المتدفق

بين الترائب والصلب
فيما تخربشني قطط اللحظةِ الحيوانيةِ الفزعة
وتلعق اوردتي
اشتعلي في رمالي (والسيف يلمع بيني وبينك)
لا بد ان تلدي (واللهاث يغشّي مرايا من الصخر)
لا تتركيني (وتلتفت الان اقبية الليل ذات الوجوه
الغرابية الشكل نحوي قائلةً لي:
ل. أ. ت. ت. ر. ك. ي. ن. ي

وشم اول

الى محمود درويش

منتصف الليل على كتب لم تُقرأ
بعد . .
وامرأةٌ ما تذهب نحو النافذة
وتنظر في الشارع
ثم تعود الى الحلم
تلملم بيدين مجرَّحتين ملامحك المتناثرة
فوق هشيم مرايا
فتأمل :
هل هذا هو وجهك
(لا احد يشبهك كثيرا غير ابيك)
تقول لك وهي تواصل نزفَ الورد
الداكن بين اليقظة والنوم
وانت تحاول أن تتذكر رائحة يدين

من الزعتر والخبز
فتبصر آثار الحبر الليليّ على الطرقات
واوراق الشجر، وافخاذ نساء مدينتهم
وتحاول ان تستحضر روح البحر الميت
فيرشح جلدك ملحاً وحصى
وتطاردك الضحكة حتى المقبض
فيما انت تطارد رائحة يدين من الزعتر
والخبز

وتلك الارض كتاب مفتوح الصفحات
على دهشتك الاولى والصحراء اخيرا . .
وتسائلني ان كان يُؤجّل موتُك يوماً
آخر او بعض نهار
كي تعترف بحبك لامرأة ما
وتتم قصيدتك
وتحصى دمك على الارصفة واثواب الباعة
لو يوم آخر او بعض نهار
كي تحضر محكمةً ما مصطحباً فقرك
شاهدَ اثباتٍ
يصرخ : ان العطر الكاذب يخفى اجسادا عفنة

ورنين الفضة في الكرش المتهدل اسمعه،
لكن
ويضيف بصوت منكسر:
احسب ان المحكمة الليلة ابعد مما..
يوم او بعض نهار
كي تبتكر ظلالك من ساعات المشي
على الرمضاء
وتبلغ باب الأم

وان الرحلة اطول مما..
هل تتخذ الغربة أُمّا
فتطوقك الاثداء القاحلة
ام تعبر؟
تسألني عن موجتك الخفّاقة تحت قميصك
ان كانت تكفي لتغطي الآن بحاراً
هل يكفي يوم آخر او بعض نهار
لتصفي الماء من السمك الاسود
والقش
وهذا الساحر يجترح لغاتٍ ومناديل ملونةً
وبلاداً تشبهك

وتعلم انك لا تشبه غير أبيك
ولا يعرفك سوى الزيتون اذا ما انتحلت
صورتك الشخصية اشجار الالمونيوم
او وضعوا فمك وراء مكبر صوت
او البسك الليل قناعا
لا يعرفك سوى الزيتون ابيك
وتفتح لليوم الكتبَ المرّة
تغلق تلك الكتب

وفي دمك هشيم مرايا
ونهارٌ يتلملم منذ ثلاثين سنة
او اكثر
انك تحمل كفيك الى الحجر الممكن
كي تكتشف الماء الصعب
وحين تعود الليلة سوف يبللّك الحبرُ
وتبحث عنْ ورقة زيتون تنقلك
الى النبض المنتظمِ
اتنصت . . ؟
ان امرأة تعطيك رنين المفتاح
الفضيّ

وتنزل سلمها الليلي معا
لكنك تدخل حجرتها السفليّة قَبْلي

تأخذ يدها في يدك وترتفعان
الى صيف اريحا
انتبه.

الحافلة تمر
وجند الملك وكتاب الصحف
ولا احد يقول عن الاعشاب
انين الطرقات
ويدعو الورْد جروحَ الاغصان
وهذا الاصفر يفترش القبلة فوق شفاة
اثنين

ويطرح بين يدينا للنسيان غزالا
هذا الصحراوي اللون الحامل قهوته
المرّة والنخل الصالح للشنق
ونعرف كيف تجيء الطير وتأكل
من رأسينا
ثم ترتل شيئا وثنيّا

نعرف ان المرأة لا تقبل اي عزاءٍ
فيما ترتدُّ الايدي خائبةً
والدمعة كاذبةً
والكلمات الجاهزة لكل مقام
ولنا ان ننزل
او نعزل عن شفتينا اصوات الجمر
لنا ان نتقاسم في القدح القطرات
ونفرق فيها الاسياد
كي نبدأ من يوم آخر او بعض نهار
ونوافي ارض الذكرى والموت
بوشم اول

٢٧ مايو ١٩٨٢

صاعداً زهرة الليلك
بعد منتصف الحلم، بين المدينة والنهر يأتي
[وليل من البقع الحمر يطفو على الصحو. .]
كان التراب الذي يتفتح تحت اصابعه
غامضا، واضحا
يمنح الغصن رائحة الاحتراقات والملمس الجارحا. .
وهو يصعد زهرته منذ الفيْ سنة
مُثقلاً الخطوات بنا
مثقلين به نحن نأتيه. .
يا ارضنا انت يا وجه من لم يعد يتذكر
اثباتَ ملكية الغيم والعطر، يا أرض كنعان انتِ

(٢)

انه الجد يأتي بقمبازه ذي الخطوط

فيجلب ماء الخرافة من طبريا،
ويمسح أوجهنا المتعبات باغصان سدرته
ثم يأخذها ويغادرنا مسرعا كي يظل الحنين بنا
هل عرفناه . . ام اننا قد نسيناه
بين المدى والسماء المضاعة
ونسينا العلامةَ فارقةً، ام ترى نسيتنا؟

(٣)

ليلة اخترقتني الرصاصةُ عند النَّهَرْ
وتناثرت من غُصن السرو اخضر . . احمر . . ابيض
آه ترقرق بي عشبٌ هابطا عتمة السلم الحجريِّ خفيفاً
ترقرقتُ منكسر الضوء فوق مرايا اغتيالي،
الى حيث يكملني الماء منسرباً في الممر القديم
وفتّحت عينيّ مثقلتين
فكان جواري يناولني كفه صاعداً
للحقول التي تبتدي في القبيلة

(٤)

مرةً
بينما كنت اجلس في ركن مقهى وحيداً

لمحت على مقربة
ذلك الشيخ ذي اللحية الكثّة المتربة
كان يرمقني مرةً
مندهشا . .
ومج دخان لفافته مرة، وهو يسرع
في شرب قهوته حين لاحظ أني احدق
قام من فوق مقعده، بينما
سقطت نظرة منه مضطربة
ومشى خارج الباب
ناديت: ياجدُّ . .
لكنه واصل السير في الشارع المستفز
بضوضائه والظلال التي تتقاطع دوما .

(٥)

ماالذي قد أتى بك؟
هل كنت انت الغريب المباغَت ام انا؟
اسأل
قف برهة، انك الان في ساحة القتل
حيث يحيطً بك العسكرُ. الباعة. الخطباء وقلبي
هاديء انت والليل . . هذا الذي يستدير

بقمصانه السود في آخر الدرب - يهدأ
يترك للساحة الخنجر. الكلمات وكل المواعيد
اني اغالب موتى تقول
ويهبط من كفك السهلُ،
يهبط غيم وقتلى كثيرون مبتسمون
واسمعني صارخا خلف سور اريحا
والرغيف يجفّ:
ان دمعة امي تشفّ عن الوهَج المستعاد
وقلبي شديد السواد،
لو انك تعلن يوما براءة جرحك مني
لاغادر نزفي قليلا
لو انك تعرفني مرة،
ويداك تلمّان بُقْيا دمي بين
سجنٍ ومذبحة
بين منفى ومقبرةٍ
كي تبلل شبّابةٌ قاع عظمى قليلاً
واذن لاسترحت قليلا . .

(٦)

انت . . ها انت
من فسحةٍ ضيقة

بين جد الشظية والرقبَة
تعبر اللحظة الكأسَ . . هذا المخيمَ والقصف
لا تنتهي التجربة
دائما وعلى حافة المائدة
زنبق اليأس والمنخوليا
يكتم الدمعَ والضحكاتِ الاخيرة
بينما تترقبني اعين الفضة الباردة
دائما يبدأ الصوت من كفك المتعفنة
الصوت يبدأ حين تهز الغصون التي في شفاهي .
ولكن يا ابتي دائما يردم الملح حنجرتي
ويغطي دمي القمر الكاذب
ويسلمني للعدو الدليل وينكرني الصاحبُ
هل ترى . . ؟
ان في جثتي الان خمسين الف شهيد يهبون
مني .
ولا ماء
ها إنهم يسألونك عن غُصن واحدٍ كي يعودوا اليه ،
ولا ظل يأتي
وفي جثتي تكبر الارض شيئا فشيئا
الى ان تشققني

الان تخرج اطيار حلم واسماء زيتونةٍ
وفضاء من الخوخ والدهشة البكر
ما حان بعد قطافي
وان زفني الشوك تيها
وما كنتَ يا أبتي لي شبيها
انما كنت انتَ انا. . . ! !

(٧)

في الاساطير تأتي نسورٌ خرافية الشكل
تنقر ذاكرتي
غير اني اقدر ان اصفَ القدسَ دون خطأ
واعد التراب الذي يستحيل الى لغة فوق
اوجه قتلاي
اقدر ان ادخل الآنَ في الشعر من عينيْ امرأةٍ
طعنتني بخنجرها الذهبي مرارا وما صرعتني
وتأتي القصيدة:
ها زهرة عطرها لا يزال يحز عروقي
هنا طائرٌ شقّني ورمى للزوابع نصفي
وفوق البحار الغريقة نصفا
اي باب على الضوء تفتح امي

فيدخل منفي،

وتظل بلادي بعيدة . .

(٨)

قلت: يا جد هل بلغتك المدينة

ـ تلك التي لم نصل

ام بلغت السفينة؟

اني احاصر بالليلك الموجَ حتى ارى

الارضَ طافيةً

فيحـاصـرني كـوكبٌ من غيـار عـلى رقعـة من نهارٍ مبللةٍ بصهيل قديم

ويأتي الصدى لابسأ كل اوجه من حاربوا

تحت راية سيفك واستشهدوا

وانا واحد منهمُ انظر . . فهذا هو الدم

هذا هو الشاهدُ

جئت احمله شارةً في الطريق الى مدنٍ

بعد لم تنس اسماءنا والصفات

وبين يديك تمر السماءُ الغريبة والنهرُ

والموتُ غير النهائي . .

بين يديك وعينيّ

ها ان روحي تصقل صفصافةً، ومدى من سلاسلَ
يصقلني، فاحسُّ اندلاعَ جروحي والوقت
والكركز الحلو في السهل
قل كم ردى تبعد القدس عن ارض بابل
كم تبعد القدس عن مرج بن عامرٍ
نحن... كم نبعد الان؟
هلا بلغت المدينة ـ تلك التي لم نصل
ام ترى بلغتك السفينة؟
ان البحار تظل معلقة في ثيابك

والارض ملصقة بخطى السالكين

١٩٨١

تجيء وغصنك من ليلة السفر
الى حيث يعرى الندى خلف بابل
انت تجيء اذن،
وتحط بك الطائرة
فقل ما الذي لاح في وجهك المرّ
هل هو حزن الصبي الطريد
ترى ام عذاب النبي المطارد دون وطن؟
وتصحبك الطعنةُ الساخرة
الى داخل البهو حيث المصابيح شاحبة
الدمع تهطل فوق الحقائب والسلم الكهربيّ
وحيث الموظفُ خلف الزجاج السميك
يقلب بين يديه الوثيقةَ حيناً
وينظر في وجهك المرّ حينا.. ويبصق!

آخٍ غريب هنا انت فلتحمل الآن
ما خلفت رحلةُ العُمُر
و آخ يداهمك القهر ذو السحنة المعدنية
هل ضعتَ؟ كم تتمنى لو انك تمضغُ
اوراق هذي الوثيقة . . انْ
ـ ما الذي يتصاعد منك؟
ـ صدى حيوانٍ جريح يئن
ـ ويافا؟
ـ معي في الكواشين (١)والصورِ

* * *

هنا انت خلف المراحيض والشرطيّ
تنادي السماء البعيدة اذ ينحني
باسما في الممرات صوت لسائحةٍ
انهم قد رأوا فيكَ شخصاً يعرّض امن البلاد
الوديعة للخطر
اتملك غيرَ العواء على الشمس
تلك المصابة بالحيض والجرب

(١) الكواشين كلمة عامية فلسطينية تعني شهادات الميلاد

وتحتضن الغصنَ عريان . . تطلب منفى وتعوى
فليس لك الان حق السؤال عن السببِ
ـ وماذا؟

وربط الحقيبة في ليلة السفر

١٩٨١

موجز الحكاية

دائما تحملنا الضحكة ـ تلك الطعنة المرة
في الليل الى البرّية . .
النجمة ملقاة
وهذا الصارخ المطعون نحن
النازفُ الوردة
بين الافق الضيق والخيمة
فيها الصوت يرتدُّ دخانا
واناشيد
وباعة
من ثقوب السقف والأسمال يهمى الصوت
يهمى الوقت رمليّ المساحات
ولمّا نترجل
او نقل : نرتاح ساعة

ثم ماذا؟

كل حلم جسد يصطكّ بالارض لكي ينقذ وعد الماء

هل يكفي المدى

ام نحن لا نكفي؟

رأينا القوم حين انتخبوا الخوف وماتوا في المرايا

وفتات الخبز اذ تهبط من فضل سماء الجند والسادة

ـ سمعا ايها الخبز وطاعة

وشهدنا في نهايات العناق النذل

كيف النصل يزرقّ ويصفرّ

دموع ام يد تَبْلغنا؟

[والزَهَرَ الخائنَ يستدرج انسانا الى رائحة الموت]

رأينا وسمعنا. . لم يعد يخفى

ولكن من ننادى؟

وهنا الخيمة تلك الغيمةُ الشاردة الظل

على الصحراء تستمطرُ هذا الصخرَ ماء

١٩٨١

ماء النهر المغدور يقول:
هنا لا زهرة في الوادي
لا رقص
وثمة شيء تحت الصخر دفين
هل دمعة امي سوف تفي بالحاجة
حين تغيض عيون السحب
ويلقى المارة اوراق الصحف الصفراء
على الجثمان ويمضون
هل دمعة امي تكفي
وانا ما زلت هنا امتد
يسير القتلى ليلا
ادم يصطك اللحظة في الابواب،
ترى.. ام ماء يعدو ملء الحتف؟

طلبتُ يدي،
ورنين سلاسل من ذهب يدعونا
كي تنمو ازهار العفو على قبر النسيانِ
طلبت لساني،
ومذيع الفترة يفتح باب القدس
لامي مزهوا،
وكلامُ الليل رغيفٌ مدهون بالزبد
اذا ما لاح الضوء يذوبْ
وعلى ضلعي وشم السوط البدويّ
وقصر النفط وخمس حروبْ
وتناديني من عمق الارض خطاي
ولكن الصخر المسنون. الطحلب
والسمك المتعفن في مجراي
واسمع صوت المياه الطعينة تحت نوافذ قرطبة
لا يكفُّ

ونهر من العرى
عمر من السبى يمضي
وزيتونة تتمايل بين يد الله والجنرالات
لكن امي معبأةٌ بالغصون التي يلمع الثمر المرُّ فيها

وكنت ارى الليلَ خلف المخيم
كان ينادي
ورائحة الضبع تسرى على عتمة من مدى وصفيح
ورجع صدى يتكسر في الريح
لم التفت.. او اقل: يا ابي
وتمدد امي على يدها تعبى ثم تغفو ازائي
وتناديني - والباب خيانات وردى -
والصيفُ ضنينُ الغيمة

هذا السيف قعيد الهمة يستجدي عطف الاعداءِ
واعرف ايضا ان القطرة في الكأس الذهبية
تُخفي السمَّ الناقع،

ان الشفرة حامية اذ تهبط نحوي
قبل صياح الديك ثلاثا..

اعرف..

هل شاهدت دماً عربي الطعنة ينزف
وردتَه الحمراءَ

- تراها قابلةٌ للقطف؟

ويأتي التاجر غِبَّ القصف يعاين في السوق الشهداءَ
الوخزةُ قاتلة

هل تكفي الشوكةُ هذي الايدي..؟

ماذا قلت؟

وهل تكفيك دمائي؟

●●●

اقول لنفسي :

الا ايها النَهَر المتخثّر في قاع آنية الجنّ

أرُسلك الآن مني،

واعطش حين تفتّح زئبقة القتل فضية

بين نوم الهشير ونجمة ليلتك المائلة

واشعر ان خطى البدو فوق يديّ وعينيَّ

تسعى

فهل مت؟

ـ لا

ـ ما الدليل. . ؟

ـ الم تسمع الصوت يدخل سنبلةً

خيمة

عمرا

يشعل اللحظةَ القاحلة

فأبدأ اول قطرة ماء

●●●

معي الجمر
لو قلتِ لي ان قدرك فارغةٌ
ان في الماء بعض حصى
آه ما كنت اترك عينيّ مغمضتين على حلُم كاذب
يتصاعد بي مَع ابخرة الماء

لا يصف العيدُ للذبح غر عصافير جائعة
منذ اول امس
الى قمحة في يد القدس
كيف؟
وكانت ذراعاك لي السقف اذ ظللتني
وجوه لئامٍ
وقد عللتني الحصاة باي كلامٍ

فصحت: كفى
ثم افصحتِ عن غيمة من حزاني
فقلت: اذن جاء فصل الشتاء
احقا؟
ام ان انتظارك محض هباءٍ
وها انا..
من لي بضوءٍ؟

كسرتُ على صخرتي افقاً من غبارٍ
وسرت وراء نهار يؤدي الى افق من غبار
ويبقى هنا كوكبٌ طالع بدمي يتقصّى مدى
وتظل يد تحفر الارض باحثةً عن سماءٍ
وجرعة ماء.

ساحةٌ واسعة في كتاب
وسماءٌ برتقاليةٌ تلعبُ
والغصن الذي يتهجّى : الفٌ، باءٌ
يميل على سطر هو الريح
وقامة انسان غريب يعبر الساحة
المزدحمة
قلت : هذا انتَ
هل كنت ادري انني اتبعني
باحثاً عن كلمة
لم تقل ايَّ شيءٍ
قلتَ لي كل شيء
بينما توغل بي داخل الاعصاب حيث الاحتراق
له رائحة الاشجار والدم من غير دخانٍ

كيف لا نلتقي الا قتيلين
وفي احسن الاحوال مطرودين من (جنة الله)
وحتى الان لم نذق التفاحةَ المحظورةَ
الآنَ ما رأيك؟

سعر اللحم مرتفع والفاكهة
والسياط اللاهبة
وهنا سيارة الشرطة تلتقط المارَّة
في الشارع، او في المقاهي

فالزم الحجرة تسلم
ولا تفتح كتابا!!
تلك ملعقة مملوءة بالتبر والتبن
قل: ايهما تختار
ما اخترتُ غيرَ القلبِ
في رجليَّ آثارعض الكلب والفلقة
تعب يحملنا ونهار ناحل يأوي
الى الطين والاسمال
فيها الاغنياء استراحوا

(اننا لا نطلب الصدقة)
بل بلادا

انت راهنت مراتٍ ومرات على النوء
لكن مياه النيل اهدأ
قالت لي امي : هاك مفتاح
باب البيت
هل يصدأ؟
اسألك الان اجبني
ان اسئلتي لا تنتهي معذرةً
ورهاناتك ايضاً
ورأينا جيادا خسرت من قبل بدء السباقات
فماذا قد ربحنا سوى معرفة الحلم الضروريِّ
والموت الذي يصلح للجسم اذ يتهاوى
راحةً لا تعبا؟
فلأقل اني ارى سببا
يحمل القلب على عدم النوم
وماذا تبصر العينُ غير الوشى في الألبوم؟
لو انت حدقتَ مليّاً سترى عجبا
انتظرني

ـ لست وحدك

(والنسر الالهي الذي ينهش القلب

يحوم الآنَ فوق جبال الملح والقصدير)
اني اضيف الآنَ كفّيّ الى الصوت
هل تسمعني؟
ما بيننا صخرةٌ، فلتعطني كفيك
خذ.
ويغشيني صدى ما سوف يأتي ولا يأتي
وماذا؟
كلما نفتح الشباك لا يدخل غيرُ رصاصٍ
وهواء فاسد واتهامات،
فهل نغلق ذاكرة سوداء امْ.. ؟
اي مدادٍ آسنٍ في عروق الليل لما يختلج بعد
هذا عمر للمرأةِ المتمنّاة وهبناه
وعدنا حزينين سعيدين
نخطُّ على الاوراق شيئا ثم نمحوه
او نلبس رمزا، فتعرّى يدُ آلامنا
والتوتُ اوضح من اي كلامٍ
انتظرني (وما كنت انا وحدي)
ولا تنتظرني
أأنا العابر ام انتَ ام نحن جميعاً
افتح كتابك واقرأ سورةَ النار.

يناير ١٩٨٢

بيروت:

انتظرينا على مدخل الطعنة الواسعة

يأتون

لا باب، لا نافذة

وهذا هو الليل. حائطنا دمنا

استندوا . .

معنا نحن

من سوف يأتي . . ؟

ولا صوت، لا يد، لا ذاكرة

ومن سوف يأتي سوى دمنا واسعاً

دائما ذلك البرتقاليّ آهِ

نقول هو الجسدُ

قد غدا شارعا

وتقول اليدُ:

هذه ليلة القتل

فانتظروا لحظةً واحدة
على مدخل الطعنة انتظروا
كي نسمى الغصونَ التي تلدُ
ونرمي على الوردة القلبَ
او نفرغ القلبَ في الجثة الهامدة
لحظة واحدة
قفوا لحظةً قبل ان تذهبوا
اذهبوا، لا تقولوا وداعا
فتبتعدوا
ايها الاصدقاء الذين تمرون بي
قفوا لحظة . . لنقول لعاشقةٍ:
ان جسمك زيتونةٌ لهديل المحبين
او صخرة الانتحار
فلا تذكرينا
لانك من دمنا هابطة
الى خارطة
تتذكر شكل البلاد وأسماءَ أصليَّةً نسيتنا
ونقول لك انتظرينا على مدخل الطعنة الواسعة،
بأية غرناطةٍ
سوف لن نتأخر اكثرَ مما يجبْ

فلا تتبعينا الى البحر
نشهد أنك ما كنت بين اصابعنا موجةً
كي يغطى سواعدنا زبدٌ

●●●

وانتم تمرون بي. . لم تقولوا
بأية طروادة سوف نمضي
قفوا لحظة
قبل ان تسدلوا الزيزفون على كتفيّ
وتمضوا
ولم نشرب الشاي،
ولم نتحدث كعادتنا عن بكاء المفاتيح في الخيط
مربوطة منذ اول هجرة
والاصابة بالحلم او بالرصاصة
امضوا. .
هنا نجمة من نحاس معلقة في السماء التي لا سماء لها
بل قفوا برهة
واضبطوا ساعة القلب كي نعرف الوقت
فينا
ونحذف عن جلدنا الحيّ وشم الطحالب والكهنة

ونقول الذي لا يقال على مدخل الطعنة المزمنة
نحن نعرف ان الرمال تُعَدُّ
وان الاغاني تعد هجرتنا السادسة
ونعرف ما ليس يعرفه احدُ
من سيأتي؟

وحدنا.. ونهاية حائطنا لحمنا المتدفق
للريح والشفرة الصدئة

وننادي

فتنهمر الابجدية
أ ب ت ث ي

وينهمر العربْ

من سحاب الخطابة والشعر
يا دمنا الاحتفاليّ وقِّع على الصفقات الثمينة
وافتتح السوق والمزرعة
للمقاول والمتحدث باسمك والشاعر القزم
والحاكم العسكري.. وتُفتتح المطبعة
وتجرى بكِ الكلمات الرخيصة والكذبُ
وفيروز في القدس لما تزل تحمل المزهرّيةَ
تحت الشبابيك والقبعات الغريبة

قد صارت المزهرية ممتلئة
وروداً،وقتلى. . ولم يسطع الغضبُ
هل لنا الان الا مواصلة النبض؟

●●●

أنتم تمرون بي ذاهبين الى الحرب
او راجعين من الذكريات الحزينة مثل طيور
خرافيةٍ جارحة
حاملين رخام السماء
فلا تنزلوا
انزلوا
لا مكان سوى دمنا صالحا بلا قامة
وذاكرةٍ واضحة
بعدما ضاع في الارض والناس ظل الامان
هنا صخرة تستحيل الى بطن امرأة حاملٍ
في الشهور الاخيرة
هنا امرأة تستحيل الى خيمة للغجر
هنا خيمة تستحيل الى صرةٍ للملابس وقت الرحيل
ولا وقت للكلمات على سلمٍ صاعد للسفينة
او نازلٍ في يد غامضة

قفوا لحظة لي قبل السفر
لاكتب في وصف بيروت وهي بأهدابكم
فضة وسهاد
وبيروت تفاحة الاثم
او زمن للشهادة
وتلك النهائية الوصف
من اين آتى لكم بالكلام؟
وبيروت ليس لها شبه غير هذا الصراخ
المصاحب للريح والشفرة الصدئة
وغير انهماراتكم
فمروا شهيدا وراء غريب وراء مباعٍ
وراء سجين
فبوابة القلب مفتوحة. والنهار لكم بلدٌ
وانتم تمرون بي والقذيفة فوق سطوح الغمام
تمر وتنزل:
واحدة. اثنتان. ثلاث. مائة
وثمانون الف
(احبك سيدة اللحظة الباقية)
وتغشى خلاياي نافذة من شظايا
(واسمك بيروت. فلنقتسم كل شيء معا

موتنا . . خبزنا . . آخر القطرات الشحيحة
والقبل الدامية)
واقول اشهدوا . . اشهدوا
قتلتني المدن
ومشى في جنازتي القتلة ،
لابسين ثياب الحداد ودمع النفاق
وفوق الاكف خطوط دمى المتعرجة الدامغة
وهل يملك الدم نسيان جثته
والعيون الرصاصية الفارغة؟
لحظة احتضنتني بيروت
او ليلة الاصدقاء على باب برج البراجنة مالوا
وخاصرة الله ، واستشهدوا

وتظل المدن
تطالع خلف زجاج نوافذها المغلقة
خيال العدو
فتهرع نحو المرايا . تُسوِّي ضفائرها . تتزين
تلبس قمصانها الشبقة
وتعد له لحمها الانثويّ وآهاته المستجيرةَ
من وجع اللذة البالغة

وتحت الاسرّة نامــوا
تغطوا بأوسمة ونياشين فضية وسيوف خشب
(أسد عليَّ وفي الحروب نعامة)
لا ملامة
انه زمن للنخاسة
لمن شاء ان يدخل الان اية عاصمة سالما آمنا
ولا من رأى
ولا من سمع

والكلام خطيئة
زمن واقع في الحصار من الماء لليابسة
فاذهبوا دون ان تسألوا . . الى اين
جنية البحر لما تزل جالسة

على افقٍ صدفيّ تغني لكم
وتنثر ازهارها المستحيلة
وانتم تمرون من دمنا
الى قيدنا الذهبيّ
وحين يحاول ان يتلفت فوق الرموش الثقيلة
ذلك التعبُ المرُّ
اصرخ لا تقفوا

* * *

هنا اول الرحلة القادمة
ضعوا الطلقات الصغيرة تحت اظافركم
نموت اذا صدئت
واحملوا ظل بيروت والنجمة العائمة
باهدابكم
نضلّ اذا انطفأت مرةً
واذهبوا . . اذهبوا
لا تقولوا وداعا فتبتعدوا
لا تقولوا
وداعا
فتبتعدوا

١٩٨٢/٩/٢

للقهوة شطآن فاهبط
لم تبلغ آخر افريقيا
وهنا اعقاب سجائرك. الاوراق. المقعد
ساعتك الخشبية والموناليزا
هل في امكانك الا ان تمضي
والغرفة تلك سفينتك الملقاة
وراء الليلة طافية وغريقة

اذهب. . ولكن اين؟ نخل شمال افريقيا
يمتدُّ ابعد من سمائك
ما الذي قد جئت تحمل في يديك: خرائط الغيم الممزقة
الطوابع. صوت امك؟
والزهور الاسيوية لا تعيش بارض غربتنا
وجلد وثيقة السفر المقرح يرتديك

ولا تمر.. فانت لم تحصل على ختم السفارة
فاتئد
وشمال افريقيا يعيد مثل وجه خديجة
اهبط..

تذكر يوم اتيتَ
وكانت تلك الخيمة تعدو خلفك
كانت ابواب تتغالق
[عد من حيث اتيت]
وتفطن انك كنت بلا زيتون
حين تهالك ظلك في رمل الهجرات الخمس
ولم تهلك
من اول مذبحة حتى اعراض الهستيريا
ما زلت تسير

وبابل اوسع مما كنت تظنُّ
وبابل تأخذ شكل ملامحك العصبية
انى تذهب
الا انك تقدر ان تصف الوجه المتباعد
يوم ابتلّ على منديل الوالدة الاولى
[والشاحنة الليلية اذ تهوى بك

فيما تعدو خلفك اسلاك وحدود]
صف لي الموت . . واعني هذا المصقول الخدين
بازهار العشاق
ولمس اكفهم الخشنة

او صف اهدابا ناصلة في قلبك
حين يطاول حزنك ليلته
ان كان لها وصف
هل ثمة فرق بين مدينة س
قل ، ومدينة ص
غير الفرق الواقع بين الكفّ
ولون القفاز الجلدي؟
وهذا انت يضيق بك الخشب الشتويُّ
ولما تنزل
والخشب الشتوي يضيق
وارضك اوسع من دمك الممتدّ
وابعد من نجمٍ

هنا بين الحقائب والخطى
ما زلت تعري في السماوات التي لا تنتهي

او في السماوات التي تعرى
ووجه خديجة الفقراء والعمر المضاع
فاين تهبط . . ؟
هل سوى عينين ضاحكتين دامعتين
حين يخون صاحبك الوحيد
وحين تسألك المدينة من تكون
واذ يهون الخبز والملح
(الرضيّة انت) تهمس راضيا
باللمسة الاولى الخفيّة ، لحظة ارتعش
الندى
او مال شيءٌ ما على صمت الظلال الداخلية
لم توضح
ثم جاءت طعنة اولى
تركتك بين البحر والصحراء مأهولا
بالماء والنار الحزينة والرمال
وآه يا عينيْ خديجة
والمدى يمتدّ مثل شمال افريقيا
هل ترجعانك
ام تضيع الليل خلف شمال افريقيا

ام تأخذان البحر منك وتتركان لك الهدير
الليلكيَّ
وانت لم تبلغْ خطاك شمالَ افريقيا
وخديجة هل سمعت بخيامك
اذ يبلوها القصفُ
واحذية الدرك العربي
لاي سبب
وبدون سبب
هل اصغت للمذياع غداة تناقلت الانباء
تفاصيل الموت الوهميّ
ولم تسمع بقيامتك اليومية اذ يتقطر
جسمك من ابرٍ وخشب؟

حسن
ها انت هنا
ماذا في الافق ترى
الشمع الدمويّ اللون
غبار القافلة
الايدي الصفراء

وتبصر ايضا وجه خديجة والفقراء

اما زال الشباكُ يطل على المتوسط
وهي تعدّ سفائنه وبراميل النفط
الشباك المفتوح
وباب خديجة يهبط حتى الماء
وانت يداكِ على زبد او صخر
تنتظران

وان خديجة لا تتذكر شيئا . . . آه
ولا تنسى . . . !

النهر يعرف دائما
ان لا حديقة سوف تصفو
للورد والحمّى
والقتل رائحة تفوح من العبارة
والثياب
ويطلب الجسدُ الممزق في المدى غيما
ما كان غير طريد رب جنودهم
وشريد مذياعٍ يقرب يوم عودته
فينأى في الاناشيد الحماسية
وحقيبة السفر المعدّة للرحيل
تعوي على الابواب
يا أنت الذي يصطاد في الليل
الدموع السود والنجما
ماذا تقول؟

ابدا تلك المدن الواضحة المبهمة
تحاصر ظلك، تتبعك معراة انىّ تذهب
تتفرس في دمك ملامحها الشهوانية
يتدفق لحمك بين الطلقة ونباح مقلوب
لحمك هذا ام تلك شظايا كوكب
يا صاحبي الغجري المتعب
تهبط سلّم ليلتك الى الاسفلت. اللغة
الامواس

[وان لها لمعان قشور السمك
ولمس اكف باردة
الأمواس المقتضبة جدا.]

ماذا يضخ بقلبك الزيتون والسّما
للحلم وقت.. انت تلعب بالكلام
هناك اطفال على سطح القنابل يلعبون
بلا هدير ازرق او خيمة مثلى
وذاكرة مغطاة بنمل او ذباب
انصتوا سنقول للنسيان
وانتظروا مجيء الورد والقتلى
وتقول لي: مهلا

والشمس تمنحنا العمى الابدي . . كيف؟
تقول لي : يا ايها الاعمى
مطر رماديّ على هذا الصباح وينجلي
وسألت من نحن، الذبيحة ام ترى الصيد الثمين
وفي الكتاب يحوم طير فوق رأسينا
ويأكل

بينما الشراح منهمكون في الفرق الاساسيّ
الذي بين السنونو والغراب
واننا نتلو على النار الجراح
فهل تفسر صاحبي الحلما . . ؟
وشبابيك الحب الغائب ترنو للبحر

يهب هدير
لا يلبث ان يتسرب من بين اصابعك
ويترك زرقته الرغوية
كلمات من رمل غير منقحة
كلمات دون كلام
وكلام يبحث عن شفتين من الفجر
ودقات الساعة تسقط في بئر ثوانيها
الصدئات

الدقات الليلية. فيها يرتد صدى خطب
جثث
منفى
والذاهب انت. وتدري من اول رملك
حتى عار الشمس الى اين
وفي ارض جزيرتنا ما زال الساحر يملك
الوان الحرباء. واشعار الجوع
ويأمرك بوصف الفرح الممنوع
ووردة حزنك امرأة تتفتح
بين يديك وتهطل في قلبك ليليًّا
لا تبك موتاك. ابكهم
ما بيتا دمع وحبر دائما
ما بيننا النسيان يجلس حاكما ويصيح:
يهبط ذلك الرجل الذي ما فارقته بعد ضحكته الاخيرة
الان يهبط ضائع العينين من برواز صورة
ماذا يرى؟
كانت مدينة من يحب
فتاته
مقهاه
زهرة اريجية

ويعاود الابحار في فنجان قهوته
على خيط دخاني نحيل
او يلملم ما تناثر من احاديث الصحاب
وطاولات الرمل تعرى في هبوب
الريح.والماضي يخبىء زرقة الشارع
اين المدينة
ذهب الذين . .
ترى احبوه كما
ام صار ما لا يذكرونه
ويعود متشحا بحبرك باحثا في الحائط المقصوف
عن بروازه الضائع
لا تبك موتاك. ابكهم
الكف لا تخفى المدى الجهما
لا تبك موتاك. ابكهم
سفن تغادر راحتينا
ثم تطوى ظلنا مدن غريبات
كم ابتعدت اصابعنا عن الزهر اللهيبي
ابتعدنا
غير ان على غصون الحلم ما جفت مخيّلة الاصابع
او غدت فحما

كم تبعد تونس عن عن رملة طبريا
كم بين الحبر وبينك
ما أطول هذا الجرح
وما اصغر هذا السكين
وبينما تقف كدمعتنا او ايذانا برجال
لك ان تصعد . . اصعد
او فاهبط سلم ليلتك
[ويطوى الحلم مسافته الصخرية دون براق
او يطوى دمك هجير ورمال]
ماذا اخترت
سأقترح القلب
لعل شظاياك الليلة تكفي هذا الافق
الممتد من الفاكهاني حتى نهايات الارض
[اذا قدّر وعبرت حدودا وجمارك
وجنود دون معنا هاتك بالصور الشمسية
والبصمات وتقدير خطورتك على الأمن العام]
تقول سوف اجيئكم
واقول للفقراء : تذهب . . فاحضروا في هذه الايام
هذا وقتكم
ولتحضروا معكم اكف الدمع نحفر تحت حائط ليلنا

بيروت كانت آخر الضوء المراوغ
وهي اول حزننا
ونقول لم نعرف لنا امّا
الا الغواية في ثياب الشهوة النفاذة
العطر. الغواية ترفع الاثداء حامضة
الحليب فيعترينا الورد والحمى
اعط الندى عنوان غربتنا
ارى الشهداء بين الله والبحّار مصطفين
بين النطح والدولار
منتظرين قاتلهم وبياع الجنازات الرصينة
والدموع الكاذبة
اعط الندى عنوان غربتنا
على غصن رمادي
بأية تربةٍ.
او اعط للاحلام اشجارا لكي ترتاح بعض الوقت
او تشقى طوال الوقت
ان الحبر يجرى الان في دمنا ويكتب ما يشاء
الكوكب. المنفى . الرياح الغائبة
او يرسم الزيتون والنجما
او يقرأ الأيام .

١٩٨٣/٧/٢٥

المحتوى

طبع في مطبعة [illegible] - عمان - طلوع المصدار - هاتف ٧٧٣٠٥١

دار الكرمل
للنشر والتوزيع
صندوق البريد : ١٧٠٦٧
عمان - الاردن

السعر : ٧٥٠ فلساً